شوقي خاتم القدماء وطليعة المحدثين

بقلم رئيف خوري

١ — عصر يهيء لنهضة

خاتم القدماء وطليعة المحدثين ، ذلك دور عظيم نسنده إلى الشاعر العظيم الذي غاب عنا منذ احدى وعشرين سنة ، ولكنه على كل حال أليق به من لقب امير الشعراء ، لأن الشعراء إن كان لهم من شيء فلن يكون إمـــارة ! وفي سبيل ان ندرك كيف كان شوقي خاتماً للقدماء وطليعة للمحدثين ، فلا بد لنا من ان نتلمح قسمات العصر الذي قـــدر للشاعر ان ينشأ في صعيده.

إن ثلاثاً وستين سنة عاشها شوقي ، بين ١٨٦٩ و ١٩٣٢ ، ليست بالجديرة أن تعد حياة طويلة ، إن كان لطول الحياة يد فيما يبلغ اليه الشعراء والكتاب من مبـالغ الابداع . ولكن موقع هذه السنين الثلاث والستين في موكب التاريخ قد كان مهماً حقاً . فهي قد ربطت بين قرنين من الزمان: التاسع عشر، والعشرين ؛ وهي على علاتها في مقدمة عصور الانسانية خصباً وغناء ، وهي كذلك من عصور العرب التي عادوا فيها يتغلبون على الجدب ويقهرون العقم . فيما بين هذين القرنين تنبه الشرق العربي بعد ما انسحبت عليه الحقب الطوال مستغرقاً في خمول بل خمود في نواحي الحياة كلها سياسية واجتماعية واقتصادية وأدبية.

كانت البلاد العربية كلها منوّخة تحت سلطـــان الاتراك العثمانيين في نظام قاعدته الاقطـــاع . وكانت الامبراطورية العثمانية في تقهقر مطرد نتيجة للاوضاع الاقطاعية التي باتت أشد فساداً وتهرؤاً من أن تستجيب لمطلب ما من مطالب الزمن ، ونتيجة للاطماع الاجنبية ، على ألوانها وأشكال تدخلها سافرة ومقنّعة .

لكن هنا لا بد من التنويه بحادثة ، من كبـار الحوادث قدّر لها ان تكون بمثابة الهزة التي قطعت عـلى الشرق العربي استرساله فيما كان فيه من خمول وخمود . تلك حملة بونابرت على مصر في خاتمة القرن الناسع عشر . فتململ الشرق العربي يومئذ — بعضه إن لم يكن كله — على زئير مدافع بونابرت والانكليز ، ثم لم يستطع ان يرجع إلى سابق عهده بالنوم والغطيط ، ودخلت على حياته من مستحدثات العصر الآلة الطابعة والصحيفة السيارة.

ثم انبعثت تلك النهضة التي قرنت باسم محمد علي . وهي من اقوى النهضات التي قامت حديثاً في الشرق العربي وأعمقها أثراً. فلقد أوشكت ان تدفع بالحياة من نواحيها السياسية والاجتماعية والاقتصادية في طريق انقلاب جذري . ولقد حاول فيها محمد علي ان يضع دعائم اقتصادية لحركته بتشييده المصانع ، وبتبني العلم الحديث ، وشجع عليه بارسال البعوث إلى اوربا واستقدام العلماء الاوربيين الاكفاء، وإنشاء المدارس والمطابع التي أحيت كثيراً من كنوز التراث العربي الثقافي ، ومكنـه من تلقيح حاضر الادب العربي المنحط بماضيه المزدهر . ودرّب جيشاً قوياً نهض بالأعمال العسكرية العجيبة. وإلى هذه النهضة يستطاع رد بذور الشعور القومي العربي الحديث . ومن يكن على شك في رحابة تلك الارجاء وجدّة تلك الآفاق التي فتحتها هـــذه النهضة للعقل العربي ، فليقرأ كتاب رفاعة رافع الطهطـــاوي « الدر النفيس » والطهطاوي هذا كان عضواً في إحدى البعثات التي أوفدها محمد علي إلى فرنسا، وكتابه ذاك مرآة عقل تحركه حضارة جديدة بتصرفها ويقارن ما بينها وبين الحضـــارة التي عرفها وورثها .

غير ان قوى الاستعمار ، وفي مقدمتها البريطانية ، لم تكن لترضى عن هذه النهضة . ولشد ما حاولت ان تدس في عجلتها العصي . ثم لم تزل هذه القوى الأثيمة ناشطة بعد وفاة محمد علي في سبيل غاياتها حتى منعت تلك النهضة من ان تؤتي ثمرها المرتجى في الحقل الاقتصادي على الأخص ، حتى لنراها فيما بعد [١] تعمد في أحيان الى تخريب المصانع تخريباً مباشراً .

في عهد إسماعيل ، العهـــد الذي ولد فيه شوقي ، تمكن الأخطبوط الاستعماري من ان يعمق مخالبـه المنشبة في جسم البلاد . ذلك ان اسماعيل وإن ظهر رجل إصلاح ونيات حسنة

(١) المراد بعد الاستيلاء على مصر .

وافتتان بالعلم والأدب والفن ؛ ان اسماعيل ، وان نشطت في أيامه الصحافة نشاطاً فعالاً وهبط مصر رهط من رجال الفكر اسهموا في الحركة الأدبية والتمثيل ، اسماعيل هذا كان مسرفاً على نفسه وعلى الأمة ، سيء التقدير لطاقته وللمطامع المحيقة به ، فتورط في أمور أقرب الى الجاه الفارغ عادت ويلاً على مالية الدولة التي هي عصب الدولة ، وفتحت باب التدخل الاجنبي على مصراعيه .

ثم كان عهد توفيق باشا ، وفي البلاد خمير فكري مبثوث نشره رجال كالسيد جمال الدين الافغاني ، وغيره ممن تتلمذوا له من أرباب القلم كأديب إسحاق وعبد الرحمن الكواكبي والشيخ محمد عبده . وكان الناس أشد ما يكونون قلقاً على مصير البلاد من عواقب سياسة إسماعيل . فأملوا خيراً من الخديوي الشاب ، ولكن توفيقاً أسرع الى تضييق مجال القول على الناس والاخذ بخناق الحرية ، فسن للمطبوعات في سنة ١٨٨١ قانوناً مغرقاً في الرجعية . فزاد ذلك بلة في الحالة القلقة التي كانت تعانيها البلاد ، فنشبت ثورة عرابي وإذا بالامور تدور مداراً ينتهي بان تفلح القوى الاستعمارية في الاستيلاء العسكري على مصر سنة ١٨٨٢ . لقد ضرب الاسطول البريطاني مدينة الاسكندرية بقذائفه ، وساعدت الخيانة الجنود البريطانيين على أن يهزموا الجيش المصري في التل الكبير . وشوقي يومذاك صبي او كالصبي يغدو ويروح الى مكتب (مدرسة) يدعى مكتب الشيخ الصالح . أفكان يفقه شيئاً من تلك الاحداث التي ستقرر مصير بلاده الى دهر طويل ؟

وها هنا يهمنا ان نتريث قليلاً لنعرض مذاهب في التفكير أحدثتها او قلبتها ظروف تلك الحقبة العصيبة . فهذه المذاهب في التفكير قد تركت أصداء جاهرة رنانة أو خافتة مهموسة في نبرات شوقي الشعرية .

كان فريق من المفكرين ، في طليعته السيد جمال الدين الافغاني ، يرمي الى جامعة إسلامية تتخذ شكل حكم شوري دستوري ، وتنتظم حول « الدولة العلية » . وتلك حركة باساس من الشعور الديني ، دفع اليها حب الصمود السياسي في وجه القوى الاستعمارية التي اصطبغت اعمالها التوسعية بلون اعتداء ديني ، في نظر الذين لم يتعمقوا الى دوافعها الاخرى ولا سيما الاقتصادية .

وبرز شعور يريد ان يحيط برقعة أوسع من رقعة البلدان الاسلامية ، ذلك هو الاحساس بنوع من وحدة شرقية عامة تقوم في وجه القوى الاستعمارية المتوسعة . ولقد ترك ذلك الاحساس صداه في قصائد موفورة اشادت بانتصار اليابان على الروس في سنة ١٩٠٥ م. لا لسبب إلا لأن اليابان دولة شرقية ونهوضها بشير بنهضة الشرق .

واشتدت على الايام المجاذبات الحزبية حول الجلاء والاحتلال وما يتصل بهاتين القضيتين . وانطلقت في عهد الخديوي عباس حركة مصطفى كامل تطالب بالجلاء فكانت صدى كبيت نفسي حادّ عنيف .

وكأن رجال القلم ما لبثوا ان تنبّهوا الى ان المشكلة السياسية لا تعالج على انقطاع ، وإنما هي مُلْحَمَة بمشاكل قومية اخرى لا بد من علاجها إذا اريد ان يكون العلاج ناجعاً أو مجدياً على الأقل . فظهر من جالوا في ميدان الاجتماع جولات يتفاوت حظها من عمق ، إلا انها اقتصرت بوجه عام على امور هي نتائج أكثر منها عوامل اجتماعية كقضية السفور والزواج غير المتكافىء والتعصب الطائفي . وقليلاً ما مست هذه الجولات الاجتماعية ، اول الأمر ، بالآفات الوخيمة التي يجرها على البلاد الفقر واحتكار الثروات في ايدي طبقة اقلية .

وبدأ رجال القلم يتصاولون كذلك في ميدان النقد الادبي ، وينقسمون بالطبع قسمين ، فمنهم من يرى المثل الادبي الاعلى في القديم ولا سيما ما عرفوه من موروثات قديم أقرب الى زمنهم كمقامات الحريري واشعار صفي الدين الحلي . ومنهم من يضيق صدراً بهذا القديم ويعده ادب انحطاط لشدة ما يثقله ويبهظه من اعباء السجع ومكلفات البديع ، فيجب إذاً التحرر منه ، وإذا كان لا بد من الاتصال بالقديم فليكن اتصالاً بادب عصور الازدهار العباسي لا عصور الانحطاط ، لكن على كل حال يجب النظر قبل كل شيء في حاجة العصر وإنشاء ادب تنطلق سفينته من ظلمات القديم الى خوض عباب الموضوعات العصرية الملحة من حول الناس ، وذلك باسلوب وعبارة أقرب الى الطبع السمح والسهولة ، أدب لا يبقى دائراً في مدار من الفنون التقليدية بل يدخل على نفسه فنوناً جديدة كالتي عرفها ادب الغرب ولم يتح للادب العربي ان يعرفها وأخصها الرواية التمثيلية .

ووقع الانقلاب العثماني فسقط السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ ، واعلن الدستور فكان لذلك دوي عظيم في الشرق

مقدم الجرس

[اهداء تقديس الى رفات امي في نكروبوليس ...]

أفسحوا الدرب . انه جاء خجلان رقيق الخطى كئيب الجبين
ألغلام الحسّاس ذو الاعين الغرقى بتاريخ ألف سرّ حزين
إنه مُطعم العيون العميقـــات وينبوع كل دمع سخين
ولقد جاءنا تبلل عينيه الدموع الخرساء عـــبر السنين

انه حزننا الصبيُّ لقيناه على غـــير موعـــدٍ وانتظار
لم يزل هادئاً خجولاً كما كان وما زال غامق الاسرار
جاءنا دافئاً أرقّ من الدمع وأحلى من رعشة الاوتار
ففرشنا له طريقـاً من اللهفة والحب والدموع الغزار

واخذناه في خشوع الى اعماق أفراحنـــا وقعر رؤانا
ومنحناه كل ما جمع الحب من اللون والشذى لصبانا
ورصفنا له هوانا وما أبقى لنا الموت والاسى من منانا
وغسلنا جبينه بدموع صامتات عطشى تذوب حنانـــا

انه خيطنا الاخير الى السروة فيه من أمسنا ألف شيء
لم يزل هامساً لنا «انها ماتت...» على مسمع الشذى والضوء
ان فيه من وجهها وأمانيها وأشواقها بقيـــة دفء
وهو إحساسها يعود الينا مرعشاً من كياننا كل جزء

انه كل ما تبقى لنا من وجه ضحكاتنا ورجع الاغاني
ان فيه نهاية الطرف الثاني لما هدّم الردى من اماني
فوهبنا له صلاة من الادمع حجلى مهموسة الالحان
ومنحناه مسكناً في مآقينا وحباً أقوى من النسيان

بغداد — **نازك الملائكة**

العربي . وامتلأت النفوس تفاؤلاً بعهد جديد من الاصـــلاح والقوة ، على ان هذا التفاؤل المشرق ما لبث أن أظلته سحابة قاتمـــة ، فالأصـــلاح المرجو لم يتم ، والقوّة لم تزد ذرة في الامبراطورية العثمانية ، بدليل ما انتهت اليه الحرب البلقانيـة سنة ١٩١٢ .

وفي تعليل قصور الانقـــلاب العثماني عن تحقيق الغايات الاصلاحية المنشودة ، قال الدكتور شبلي الشميل : كان ذلك « لعدم اشتراك الامة فيها اشتراكاً محسوساً بسوى الاكثار من التغني في اول الأمر ، وهي اليوم تكثر من العويـل ولا تتعداه الى عمل حازم وتخرسها اقل كمّامة . فثورتنا حتى الان عسكرية ، اقتصر التغيير فيها على صورة الهيئة الحاكمة ، فلم تغيّر شيئاً من اخلاقنا ولم تتصل الى علومنا وصناعاتنا وتجارتنا»

ثمّ زأرت مدافع الحرب العظمى الاولى سنة ١٩١٤ فهزت الدنيا هزاً عنيفاً ومنها مصر والشرق العربي كله . فصل الخديوي عباس عن عرشه ونفي من مصر لأنه كان متهمـــاً بالميل الى الأتراك ، وتجلى الضعف المستور بواجهة مطلية في كيان الامبراطورية العثمانية ، وعصف بها ما فيها من تناقضـــات فتمزقت . واثبتت القومية العربية انها ذات فعالية قوية ، وان تكن عارضتها اسباب وشوائب من بطش وتآمر من قبل الخارج الاستعماري ، وجهل وخيانة من قبل الداخل . اسباب وشوائب انحرفت بها عن قصدها الذي لا يمكن ان تقصد الى سواه وهو التحرر المطلق .

ولكن برغم ذلك استمر تطور الشرق العربي في نواحي الحياة كلها ، بعد الحرب العظمى الاولى . وطرحت بشكل اشدّ واعنف مسألة استقلال الاوطان العربية وتحررها من نير الأستعمار الأوروبي ، كما تحررت من نير الاستعمار التركي . ولئن كنا لا نستطيع هنـا ان نحيط بالحركات والثورات ، والتيارات الفكرية ، التي غلا بها وجاش الشرق العربي في حقبة ما بعد الحرب العظمى الاولى ، وزرع الشهداء من شواطيء الاطلسي الى وادي النيل وجبـــال نابلس وشوارع بيروت وسفوح قاسيون وضفاف دجلة ، فان علينا ان تكون لنـــا صورة واضحة من ذلك كله اذا اردنا ان نفهم شوقي ونضعه في موضعه الحق من التاريخ ، ونعرف لم استطاع في تأريخ الأدب العربي ان يكون هو خاتمة القدماء وطليعة المحدثين . واقول : « لم استطاع » توكيداً للعنصر الشخصي في تمكن شوقي ان يبلغ ما بلغ اليه من تبوؤ مركز الخاتم للقدماء والطليعة للمحدثين . فالذي يخيل لي ان التعليل باحوال العصر لظاهرة فريدة في التاريخ يقال لها شوقي او المتنبي هو تعليل قاصر فاشل . فلو لم يكن ثمة العنصر الشخصي ، لو لم تكن ثمة العبقرية ، لوجب اذاً ان يكون المتنبي كلُّ من عاش في عصر المتنبي ، وشوقي كل من عاش في عصر شوقي ، وليس ذلك هو الواقع . وسنرى .

رئيف خوري